

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

بعض مظاهر تدهور التراث العمراني بمدينة تطوان العتيقة (شمال المغرب)

Some manifestations of the deterioration of the urban heritage in the ancient city of Tetouan (northern Morocco)

بلال الزروالي¹، أردة إلياس²¹ جامعة عبد المالك السعدي (المغرب)، zaroualib@gmail.com² جامعة عبد المالك السعدي (المغرب)، ilyass.arada@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/03/15

تاريخ القبول: 2020/11/01

تاريخ ارسال المقال: 2020/08/13

* المؤلف المرسل

الملخص:

تتوفر مدينة تطوان على تراث غني ومتنوع، شكل ذاكرتها في الماضي، كما يمكنه أن يشكل قاعدة للتنمية السياحية بما في الوقت الراهن. والملاحظ مكونات التراث العمراني التطواني يعاني من حالة تدهور وتراجع ملموسين بسبب حدة التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وبسبب الإهمال المتواصل الذي طال هذه المدينة من طرف السلطات العمومية.

عموما، نحاول انطلاقا من هذه الورقة البحثية، الكشف عن مفارقة جوهرية حقيقية، تميز واقع مدينة تطوان العتيقة اليوم، فهي من جهة مهد الحضارة لقرون عديدة، غنية بالتعابير والأشكال الثقافية، وإنتاج متميز للصناعة التقليدية، لكنها بالمقابل، تعيش وضعية صعبة خاصة إذا علمنا إطارها المبني إما مهدد بالانهيار، وإما وصل إلى درجة كبيرة من التدهور. وهذا ما يستدعي التدخل للحفاظ على هذا الموروث.

الكلمات المفتاحية: التراث الحضري، التدهور العمراني، التأهيل ورد الاعتبار، مدينة تطوان العتيقة.

Abstract :

The city of Tetouan has a rich and varied heritage, which formed its memory in the past, and can form a base for its tourism development at the present time. It is noticeable that the components of the urban heritage of Tetouan are suffering from a significant deterioration and decline due to the severity of the social, economic and cultural transformations, and because of the continuous neglect that affected this city by the public authorities.

Generally, based on this research paper, we try to reveal a real fundamental paradox that characterizes the reality of the ancient city of Tetouan today, as it is on the one hand the cradle of civilization for many centuries, rich in expressions and cultural forms, and with a distinct production of traditional industry, but on the other hand, it lives in a difficult situation, especially if we know its framework. The building is either threatened with collapse, or has reached a great degree of deterioration. This is what calls for intervention to preserve this heritage.

Keywords: Urban heritage ; Urban deterioration ; rehabilitation and rehabilitation ; the ancient city of Tetouan.

مقدمة:

إن استعراض الموروث الثقافي والتاريخي الذي تزخر به المدينة العتيقة لتطوان لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يميّط اللثام عن عمق الإشكاليات والاختلالات التي يعاني منها. فالإطار المادي للتراث العمراني والثقافي للمدينة عرف تدهورا كبيرا، جراء مجموعة من التحولات والضغوطات الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها وتشهدها المدينة العتيقة لتطوان منذ حرب 1860 إلى الآن، والتي كانت من نتائجها البارزة تدهور البنية العتيقة وإتلاف تراثها التاريخي والحضاري، والذي تزداد حدة تدهوره بفعل تداخل عوامل الزمن والطبيعة والإنسان.

فالمدينة العتيقة لتطوان تمثل تراثا حضاريا إنسانيا بامتياز، وذلك بالنظر لمخزونها الثقافي والتراثي الغني، الذي تراكم طيلة المراحل والقرون التي مرت منها (منذ إعادة تجديدها منذ أكثر من خمسة قرون من الزمن). هذا التراث الذي يجمع بين الفن المعماري الضارب بجذوره في العمق التاريخي للحضارة الإسلامية، وبين المهارة والإبداع الذي يعبر عن امتزاج الثقافة المحلية للمدينة بالذاكرة الجماعية والهوية الوطنية.

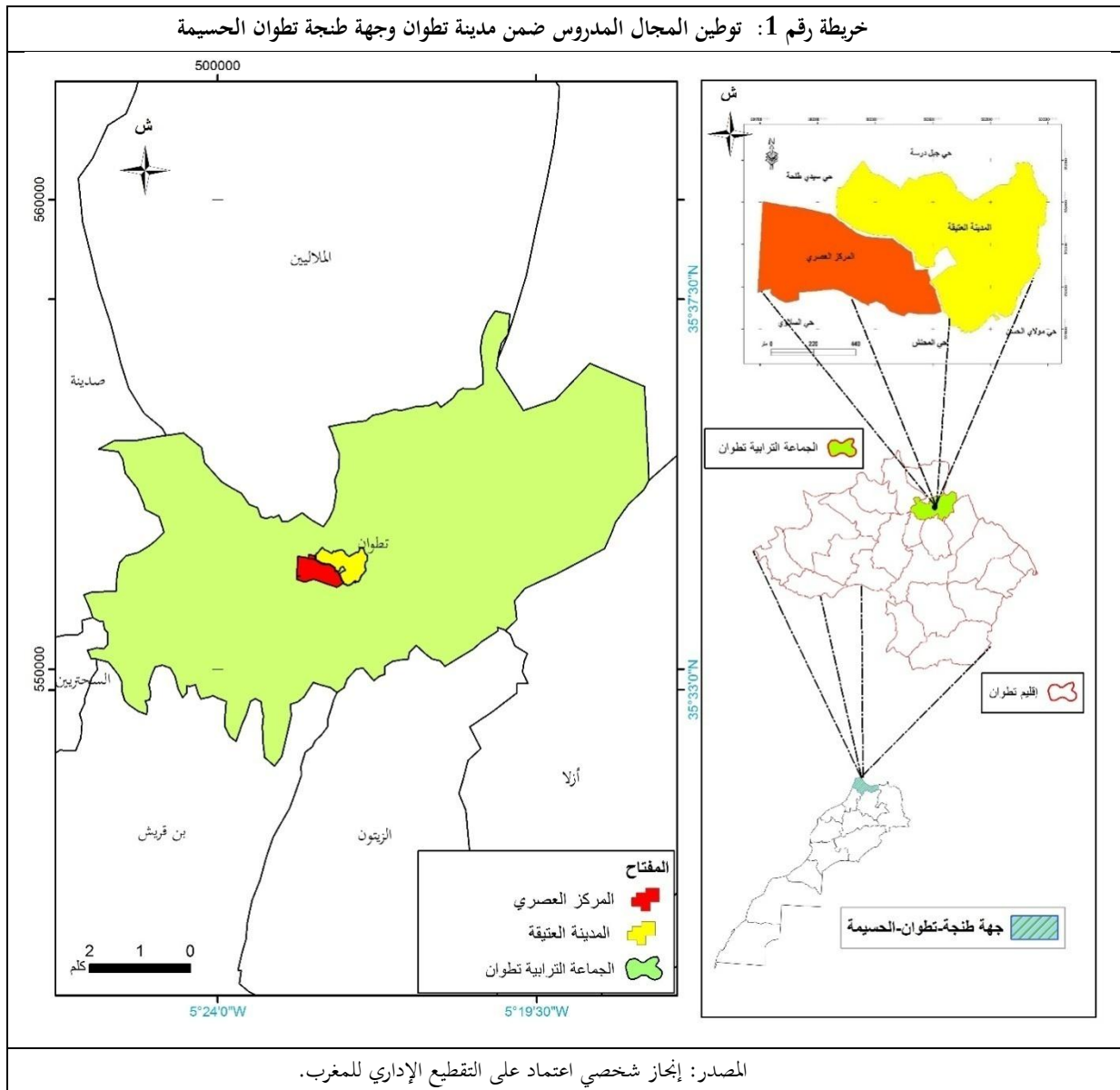
فمدينة تطوان تتوفر على جميع المقومات الحضارية التي ميزت المدن العتيقة المغربية والإسلامية عموما، حيث تشكل كقلعة منسجمة محاطة بأسوار ترمز إلى الطابع الدفاعي للمدينة، وكذلك إلى الوظيفة العسكرية التي كانت تقوم بها، ثم الأبراج التي تعتبر كدعائم للأسوار. وقد استعملت كمراكز دفاعية وسند رئيسي لحراسة الأبواب المتعددة التي تتخلل أسوار المدينة. كما تتكون أيضا، من أحياء سكنية تتفاوت في حجمها وتباين في تخطيط أزقتها، وفي وظيفتها وطبيعة وحداتها السكنية، ثم هناك مناطق مخصصة للأنشطة المختلفة (الحرفية، التجارية...) وكل ذلك، يتمحور حول المسجد الأعظم الذي يشكل مركز المدينة وقلبها النابض، والذي يمثل نقطة التقاء جميع الشوارع الرئيسية للمدينة.

وسنعمل في هذه الورقة البحثية على استعراض أهم المعالم التراثية التي تزخر بها مدينة تطوان العتيقة ليس بهدف التعريف بها فقط، وإنما العمل على رصد التغيرات والتحولات التي عرفت، والواقع الذي تعيشه.

1- التوطين المجالي والأهمية الوظيفية لمجال الدراسة

تعتبر مدينة تطوان (خريطة رقم 1) من أهم المدن على الصعيد الوطني وذلك اعتبارا لأدوارها التاريخية والإدارية التي لعبتها على مستوى الوطني بشكل عام وبحوض البحر الأبيض المتوسط بشكل خاص. فموقعها المتميز في الإقليم الجغرافي الكبير وتوالي الثقافات على أرضها، وكذا طبيعة الاستعمار الأوربي الذي خضعت له؛ أعطوها طابعا متميزا في مختلف مكوناتها الحضرية.

تنتمي المدينة العتيقة (حوالي 54 هكتار) إلى مدينة تطوان التي تقع بدورها في الشمال الغربي للمملكة المغربية، بأقصى شمال سلسلة جبال الريف الغربي، على بعد حوالي 40 كلم عن سبتة المحتلة وبـ 10 كلم عن البحر الأبيض المتوسط.



ويأخذ المجال المدروس موضعا هاما ضمن النسيج الحضري التطواني، حيث يشكل قلب المدينة ومركزا لمجموعة من العلاقات والترابطات بين مختلف الأنساق المحلية للخطيرة المعنية: يحده شمالا حي درسة، وجنوبا أحياء كل من المنش وكرة السبع، وشرقا أحياء: الطويلع، ومولاي الحسن، وغربا المركز العصري وحي سيدي طلحة.

واعتبارا لأهميتها الوظيفية والاستراتيجية في تنظيم المجال، فإن عملية التوسع العمراني بها مرت بمجموعة من المراحل، وتحكمت فيها مجموعة من الآليات، أفضت إلى تشكيل نسيج حضري أصيل يتكون من أربعة أحياء رئيسية (البلد، رض الأسفل، رض الأندلس، والملاح)، تحتضن أصناف معمارية متنوعة، ارتبط كل واحد منها بالظروف التاريخية لإنشائه والوسائل التقنية لبنائه، وكذا أساليب تديره ومراقبته.

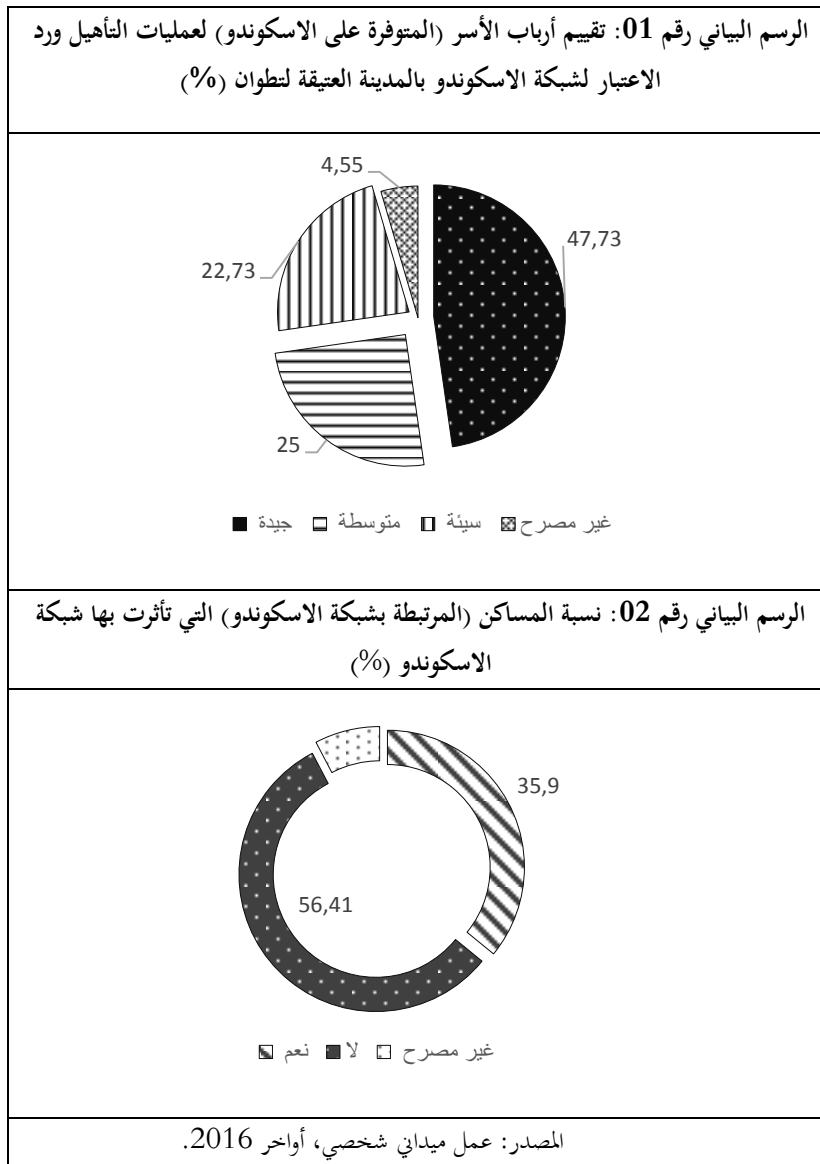
1- تدهور النظام الأصيل لتوزيع الماء "الاسكوندو"

تُعَدُّ شبكة الاسكوندو [1] من أقدم شبكات توزيع الماء الصالح للشرب في المدينة العتيقة، ظهرت بظهور النواة الأولى للمدينة، يسميه السكان القدامى لتطوان "بماء البلد" أو "ماء العين" أو "ماء الله" وغيرها من التسميات. أخذت هذه الشبكة بالتفرّع تبعاً للتوسع العمراني الذي عرفته المدينة، وتعتبر العيون المنبثقة والممتدة على طول خط التماس بين التكوينات الكلسية الشديدة النفاذية وصخور الزمن الأول المتسمة بانعدام أو ضعف النفاذية، المصدر الرئيسي لهذه الشبكة. وقد لعبت هذه الشبكة دوراً كبيراً في تزويد حاجات المدينة العتيقة طوال الفترات التاريخية التي مرت بها، قبل إقامة نظام التوزيع الجديد في نهاية العشرينيات من القرن الماضي.

لقد شكلت فترة الاحتلال الإسباني الأول للمدينة، البدايات الأولى التي أفقدت النظام، توازن مكوناته وسيّره الوظيفي، ليزداد الوضع سوءاً واستفحالا بعد ذلك. "فاتباع المسؤولين، منذ الحماية، سياسة تدبير وهيكلية المجال ومختلف القطاعات على أسس ونظرة قطاعية، وغير متكاملة ولا شمولية لوحدة المجال، عمق من خلل الأوضاع بكل القطاعات. وجراء هذا أصبح التعامل مع المدينة العتيقة وثقل موروثها مقسماً بين عدة مصالح لا يجمعها رابط" [2].

ويلاحظ أن الأشغال التي هَمَّت هذه الشبكة، أدت إلى فقدان هذا النظام هويته وأصالته، فأُتلفت أجزاء مهمة من الشبكة، واستبدلت مُكوّنات النظام الأصيل بآخر حديث "دون الاكتراث بالأهمية التاريخية والقيمة الاقتصادية والثقافية التي اكتسبها هذا النظام (شبكة التوزيع القديمة) والتي تميزه بل وتجعل هذه المدينة تنفرد به عما سواها في كثير من محتوياته، والحاجة المتزايدة لاستعمال مياهها، فإن كثيراً من الجهات (وكالة التوزيع والمصالح البلدية والخواص) عملت على إتلاف بعض من معالمه وأخرى دعت إلى ذلك بذريعة تلوث مياه الشبكة القديمة... وكثير من هذه الجهات قدمت اقتراحات في شأن التخلص منها" [3].

وغير بعيد عن التدخلات التي همت الشبكة (على علتها)، عبر أزيد من نصف الأسر المرتبطة بهذه الشبكة، أن التدخل فيها كان متوسطاً إلى سيئ، في حين رأت 47.73% أن هذا التدخل كان إيجابياً وجيداً (الرسم البياني رقم 1). فبحسبهم، ساهمت التدخلات التي همت الشبكة إلى عودة المياه إلى الجريان إلى المسكن، كما أن عودتها، حسب تصريح العديد منهم كان بصيب كبير عن سابقه، وهذا الأمر بطبيعة الحال، يكون على حساب حصة مساكن أخرى من الماء. والحالة هذه، أن حوالي 40% (الرسم البياني رقم 2) من الأسر المتوفرة على الشبكة أقرت بأنه، وقع تغيير في حصة الماء (بالزيادة/النقصان). ونسوق في هذا الإطار، شهادة أحد أرباب الأسر الذي عرف مسكنه انحصاراً لماء شبكة الاسكوندو، حيث أكد لنا أن "طالع حومة درب الخطيب، أثناء عملية التدخل فيه، من طرف المصالح المعنية، فإن توزيع حصص الماء للسكان لم يبق كما هو، بحيث استفادت مساكن من حصص كبيرة، مقابل عدم استفادة أخرى من الحصص التي كانت قائمة سابقاً" [4]، وهذا الأمر يعبر بجلاء عن محدودية وفهم سطحي وغير دقيق لحيشيات النظام ومكوناته، وهو ما يؤكد على الإخلال والإضرار به.



إضافة إلى ما سبق، ساهمت التحولات الاجتماعية التي شهدتها المدينة، منذ عهد الحماية وما بعدها بشكل كبير، في تدهور نظام التوزيع. فقد ظل سكان المدينة يتحملون مسؤولية صيانة منشآتهم المائية وإصلاح القنوات ومراقبتها باستمرار، غير أن انتقال جزء كبير منهم للاستقرار خارج أسوار المدينة وتعويضهم بساكنة ذات أصول بدوية، ساهم في تسارع وتيرة التدهور بسبب قلة المعرفة بطريقة عمل النظام من جهة، ولعجزهم على تحمل مصاريف الإصلاح. فكان ذلك سببا في حدوث كثير من التشوهات التي عرفت الشبكة [5].

وبوفاة العارفين لأسرار النظام واختفاء وظيفة أرباب البصر كجهة مؤهلة ميدانيا وإداريا لحل المشاكل التقنية وكشف التجاوزات والخروقات ورد الأمور إلى نصابها كلما مالت إلى الاحتلال، تم فقدان رصيد من الخبرة التي تراكمت جيلا بعد جيل، خصوصا وأن خبراء المياه الكبار رحلوا دون خلف أو مؤتمن ولا رسم أو تخطيط للشبكة.

لقد كان لهذا الاختلال وقع كبير على بنية وسير الشبكة القديمة من تهشيم وتعطيل وانسداد كثير من قنوات هذا النظام. ومن مظاهر تدهور هذا النظام وفقدانه لأصالته نذكر:

اختفاء بعض "القنا" أو الحنفيات: من هذه الحنفيات أو القنا التي اندثرت نهائيا "قنا الترانكات (قبالة زاوية الفاسي، وكانت تسمى لقنا الكبير)، ثلاث أفنية بزقة التشرير ولقنا ساحة اللبادي ولقنا عاشر (بزقة المقدم) ومعدة عند نهاية زقة عزيمان (حومة الأطرانكات)، ولقنا سيحي الناجي بالعيون، ومعدة تربية التسفيد (أمام مزار سيدي علي بركة)، المعدة العمومية في درب الخطيب (أمام مسجد للا غيلانة) ولقنا المتصل بباب مسجد ابن صالح (جامع الشحيت) والمعدة التي كانت بالجزارين غير بعيد من الغرسة الكبيرة وغيرها [6].

توقف صبيب المياه: يتعلق الأمر بتوقف الماء عن العديد من القنا والعديد من الدور، وفي هذا الإطار، ترد إلى مصلحة المدينة العتيقة مجموعة من الشكايات التي تفيد بتوقف صبيب المياه وتراجع قوة صبيهه.

تلوث بعض القنوات [7]: يعتبر تلوث مياه الاسكوندو من أهم مظاهر التدهور التي لحقت بهذا النظام، حيث اختلطت العديد من قنوات مياه الاسكوندو بمياه غير صالحة للشرب (المياه العادمة)، بسبب الحالة السيئة لنظام الصرف الصحي. وهذا ما جعل استغلالها يقتصر على أشغال البيت (التنظيف).

استبدال عناصر الشبكة التقليدية بمكونات عصرية: تطلب التدخل "لإصلاح" شبكة الاسكوندو، تغيير قنواته الأصلية (الفخارية) بقنوات بلاستيكية جديدة، كما أن هذا التدخل، عمل على تغيير مسارات هذه القنوات، والاستغناء عن العديد منها، بتجميعها في قنوات كبيرة الحجم. وهذا ما أثر على هذا النظام وجعله يفقد الكثير من عناصره وبالتالي فقدان لأصالته.

تلك بشكل عام، أهم أشكال تفكك الهوية العمرانية لشبكة الاسكوندو، غير أن هذا التفكك لا يقتصر فقط على هذه الشبكة؛ بل يشمل مختلف العناصر العمرانية والمعمارية بالنسيج العتيق المصنف تراثا عالميا للإنسانية منذ سنة 1997.

2- تحول الساحات والأزقة والأبواب الرئيسية إلى أسواق عمومية

تتوفر مدينة تطوان العتيقة على مجموعة من الساحات العمومية كانت تشكل جزءا هاما من الذاكرة الجمعية ومن هوية المدينة وتاريخها وكيونيتها، كما أنها تعد متنفسا وأفضية تسودها أجواء اجتماعية وثقافية ذات حمولة رمزية مهمة. بالإضافة إلى ذلك، تضم المدينة سبعة أبواب رئيسية، كل باب ارتبط ظهوره بفترة تاريخية معينة. هذان المكونان العمرانيان، ونظرا لموقعهما المتميز، نجدهما قد أصبحا مجالين مفتوحين للباعة بدون محل. ذلك أن المدينة العتيقة لتطوان تعتبر أحد "المحالات المفضلة للباعة المتجولين لوجودها وسط المدينة وبمحاذاة المركز العصري، الذي يعتبر قلبها النابض، ولاعتبارها (كانت) من طرف الباعة "مجالا آمنا" لا تشمله حملات الملاحقة

والطرد التي تمارسها، في بعض المناسبات، السلطات المحلية في حق الباعة المتجولين والتي تركز على بعض شوارع المركز العصري" [8].

وكما سبقت الإشارة، فإن الساحات والأزقة الرئيسية ومداخل بعض أبواب كانت المدينة تشكل مجالا مستقطبا للباعة المتجولين لعرض بضائعهم المختلفة. ومن أهم الأبواب والساحات العمومية التي ترتبط بهذا النوع من التجارة، نذكر:

ساحة الغرسة الكبيرة: كانت هذه الساحة انطلاقا من اسمها عبارة عن غرسة ومنتزه للسكان تقع خارج سور المدينة الأول (السور الأول الذي أحيط بالمدينة خلال فترة حكم سيدي علي المنظري). وكانت هذه الساحة إلى عهد قريب، تشكل فضاء على شاكلة سوق، تعرض فيه الملابس المستعملة المهربة من سبتة. إلى أن نُقل هؤلاء الباعة إلى سوق خارج أسوار المدينة (سوق المحنش)، غير أن المحلات الواقعة بهذه الساحة مازالت تحتفظ بوظيفة بيع الملابس المستعملة.

باب التوت: توجد هذه الباب غربي المدينة، سميت بهذا الاسم لأن الأراضي التي خارجها كانت بها أشجار كثيرة من التوت. وقد سمح الموقع الاستراتيجي لهذه الباب باعتبارها نقطة التقاء مركزية بين الحي الأوربي والمدينة العتيقة بأحد أهم شوارعها دينامية وحركية بالسكان (تقاطع شارع الجزائر وابن حسان) من جهة، ومن جهة ثانية، يعتبر هذا الباب مدخلا لأهم محور طرقي بالمدينة العتيقة (شارع عبد اللطيف المدوري وبنقة الوطنية). كل هذه المعطيات جعلت من محيط الباب والمحاور المرتبطة به، مجالا مركزيا واستراتيجيا للنشاط، يعرف حركة دائمة ومستمرة للسير والجولان، جاذبا ومستقطبا للباعة بدون محل. حيث كانوا يعرضون مجموعة من البضائع التي تتنوع بتنوع المناسبات. وتعتبر تجارة المواد الغذائية (الخضر والفواكه وبيع السمك والدجاج) أهم المنتوجات المعروضة عند مدخل ومحيط الباب المذكور.

باب النواذر: يعتبر هذا الباب من أهم أبواب المدينة، حيث يعرف دينامية مجالية مهمة جدا. فهو يفوق من حيث حركة السكان والبضائع باقي الأبواب الأخرى للمدينة. هذا الباب ونظرا لقربه من محور رئيسي (جزء من شارع أبي بكر الصديق، الرابط بين المدينة العتيقة والمركز العصري) يربطه بمجموعة من الأحياء الكبيرة وذات الكثافات السكانية المهمة (كحي سيدي طلحة وجبل درسة)، والتي تعتمد (وخاصة جبل درسة) في تزودها على بعض البضائع والمواد الأساسية بشكل كبير على المدينة العتيقة، وتعتبر المواد الغذائية (الخضر، الفواكه، اللحوم، الأسماك...) أهم هذه البضائع. ولعل ما يجعل منه بؤرة تعرف حركة اختناق مروري (خاصة في فترات الذروة) هو الانتشار المهم للباعة بدون محل (خاصة بالمحيط الداخلي للباب) والذين يعرضون سلعا متنوعة تختلف باختلاف المواسم والأعياد والمناسبات (الصورة رقم 1).

أما بالمحيط الداخلي وعلى طول شارع العيون، فإن هذا المحور (المخصص عادة لعرض المواد الغذائية من خضر وفواكه وأسماك...) يعتبر (إلى جانب محور سيدي علي اليوسفي عند مدخل باب العقلة) من أكثر الممرات

دينامية على مستوى المدينة ككل. ويعرف انتشارا كبيرا للباعة بدون محل، خاصة النسوة القادمات من الأرياف القريبة (جماعة الصدينة، بن قريش، والملاطين)، حيث يقمن بعرض منتوجاتهن المحلية من خضر وخبز وبقليات.... وإلى ذلك يضاف، لجوء أصحاب المحلات المهنية إلى عرض جزء مهم من بضائعهم على جنبات الطريق، الشيء الذي يزيد من حدة الاكتظاظ واختناق حركة السير.

الصورة رقم 01: أهمية تدفقات التنقل التي تعرفها المحاور المرتبطة بباب النواذر



تبين الصورة أعلاه، الحركة الدووبة التي تعرفها المحاور المرتبطة بباب النواذر، حيث تشهد دينامية قوية على مستوى التنقلات، والتي تزداد حدثا خلال ساعات الذروة وفترة الأعياد والمناسبات. ويرجع ذلك، بالأساس إلى أن هذا الباب يشكل ملتقى مجموعة من المحاور الطرقية التي تصل إلى بعض الأحياء السكنية ذات الكثافة العالية والمهمة (كحي سيدي طلحة وجبل درسة)، والتي تعتبر المدينة العتيقة والمركز العصري مجالات حيوية لقضاء مجموعة من أغراضهم اليومية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن مجاورة هذا الباب لسوق باب النواذر والسعيدية يعتبر أحد العوامل الأساسية في احتدام حركة التنقل بالمحاور الطرقية المرتبطة بهذا الباب.

المصدر: عدسة شخصية (بلال الزروالي)، بتاريخ 2018/06/06

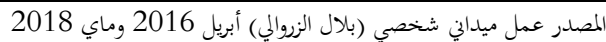
باب العقلة: يعتبر هذا الباب، الواقع جنوبي المدينة، أحد أهم أبواب المدينة حركة ودينامية، كما أنه يعرف انتشارا كبيرا للباعة المتجولين به (داخل وخارج الباب)، وقد لعب موقع الباب ووجوده على أهم المحاور الطرقية بالمدينة (سيدي علي اليوسفي) دورا بارزا في انتعاش حركة النقل والتنقل به، كما ساهم في انتشار كبير للباعة بدون محل به وعلى طول المحاور الطرقية المتصلة به (سيدي علي اليوسفي، الطرفين حتى ساحة سوق الحوت القديم). وتعتبر تجارة المواد الغذائية أهم المنتوجات المعروضة بها.

3- "الفنادق التقليدية": مكوّنات عمرانية فريدة بوظائف جديدة

إن للفندق بمدينة تطوان العتيقة أهمية بالغة. إذ يأتي الغرض من إنشائها، إيواء التجار الغرباء وخزن السلع قبل توزيعها. وكانت الفنادق في غالب الأحيان عبارة عن بناء متواضع يضم عددا من الغرف الفارغة من الأثاث، حيث كان المسافر لا يجد فيها سوى غطاء وحصير ينام عليه، أما الخيول والدواب فتربط في فناء الفندق. وقد وصف لنا محمد داوود مؤرخ مدينة تطوان وصفا دقيقا، يشرح فيه أنواع الفنادق ووظائفها، حيث يقول: "الفندق -بفتح الدال- كان يطلق عندنا على مكان مربع أو مستطيل، في وسطه ساحة واسعة تحيط بها بيوت صغيرة، وربما كانت فيه طبقة ثانية فيها بيوت فوق التي تحتها، وكانت الفنادق بتطوان على نوعين، نوع للتجارة ولبعض الحرف والصنائع اليدوية، وتعرف بفنادق السلعة، ومازالت بحومة البلد قطعة تسمى (بين الفنادق)، ونوع آخر للمسافرين وللآفاقيين الواردين على المدينة ببيئاتهم، فينام المسافرون مع بضائعهم، والحمارون مع سلعهم داخل البيوت، وتبيت دوابهم خارج البيوت في الساحة العمومية من الفندق، وكان هذا النوع من الفنادق يعرف بفندق البهائم. ولم تكن في تطوان أماكن عمومية يأوي إليها المسافرون غير تلك الفنادق، أما الزائرون "المحترمون" فكانوا ينزلون إما في دور أصحابهم، وإما في بعض الزوايا أو بالاسقالة وما يشبهها من منازل أهل الفضل والإحسان" [9].

واعتبارا لأهمية الفنادق بمدينة تطوان، فإنها عرفت ارتفاعا مطردا في أعدادها. فقد ذكر الرهوني في كتابه عمدة الراوين في تاريخ تطاوين أنها بلغت سنة 1358 هـ "واحد وثلاثون، وربما تزيد بنحو ثلاثة" [10]. ولم يبق في تطوان من الفنادق في حالته ووظيفته الأولى شيء، حيث عرفت تراجعاً لوظيفتها الأصلية لصالح أنشطة أخرى. ويمكن أن نميز بين نوعين من الوظائف الحالية للفنادق: فنادق مخصصة للسكن، وأخرى لممارسة الأنشطة (التجارية على وجه الخصوص). وثالثة تجمع بين هاتين الوظيفتين وتوضح الخريطة رقم 1 أهم الفنادق بمدينة تطوان ووظائفها الحالية.

الخريطة رقم 01: التوزيع المجالي والوظيفي للفنادق التقليدية بالمدينة العتيقة لتطوان



ووجب التنبيه، إلى أن تحول وظيفة الفنادق ليس طارئ الحدوث، وإنما ظهرت تجلياتها خلال فترات تاريخية سابقة. ونذكر في هذا الإطار، تحول وظيفة فندق النجار إلى مقر للزاوية الناصرية. حيث تم هدم الفندق سنة 1954 م وإضافته إلى الزاوية الناصرية بحي البلد. وتم هدم فندق عائلة لوقش وبناء مكانه مقرا للزاوية الريسونية بنواة الصياغين حيث حي البلد.

384

عموما، تبين لنا أن الفنادق التقليدية بالمدينة العتيقة، عرفت تحولا شاملا في بنيتها وفي وظائفها، كما يمكن أن تشكل وعاء عقاريا يمكن المراهنة عليه في إنجاز مجموعة من المرافق.

ونشير إلى أن التدهور والتحول الذي مس المكونات العمرانية للنسيج العتيق، مس باقي المكونات المعمارية، وعلى رأسها التحصينات الدفاعية (الأبراج والأسوار).

4- اختفاء تدريجي للأسوار الأصلية

تعتبر الأسوار من سمات المدن القديمة التي حددت إطارها الجغرافي، وحصرت جميع أبنيتها في الداخل رغبة في الحماية من الأعداء والمغرضين. وقد تدخل الشكل -بشكل حاسم- العام لتضاريس الأرض وموضع المدينة في تحديد الخط العام للأسوار، إضافة لحسابات النمو السكاني المستقبلي الذي كان يؤخذ بعين الاعتبار عند إقامتها. وتكون الأسوار مبنية من الحجر، وتتميز بمتانتها وارتفاعها بحيث تؤمن حماية ولو مفترضة للسكان في الداخل، وتتفاوت سماكة الجدران وفق حاجات الدفاع كما تتقارب أبراج المراقبة والدفاع في نقاط الضعف التي كانت معرضة للهجوم أكثر من غيرها.

ويلاحظ على مستوى مدينة تطوان، أنها تتوفر على سور يمتد على مساحة تقدر بخمسة كيلومترات، وبني عبر فترات تاريخية متباعدة، بناء على الحاجة من بنائه، وامتداد العمران. ويؤكد العديد من الباحثين في تاريخ تطوان أن المدينة عرفت بناء سورين في فترتين مختلفتين: الأول تم خلال فترة حكم المنظرين للمدينة. أما الثاني فتم بعد ذلك. فبخصوص تلك التي أقيمت بعد أسوار القائد المنظري، يعتقد المؤرخ محمد داوود أن الأمر تم عبر مرحلتين أو ثلاث: "وبإنشاء هذا الرض [أي الأسفل] أنشئ بالمدينة سور جديد جعل فيه بابان جديداً هما باب العقلة وباب الرموز" [11]. وعند زيادة الرض الأعلى وما ألحق به من حومتي العيون والأطرانكات تم إحاطة الزيادة بسور جديد. وفي "ذلك العهد نفسه أو في عهد قريب منه وقع قليل من التوسع أيضا شرقي المدينة وفتح هناك بابان هما باب الصعيدة وباب الجياف" [12]. وقد خلص مجموعة من الباحثين إلى "أن بناء هذه الأسوار يدخل ضمن الأعمال التحصينية التي تمت في عهد المولى إسماعيل في ولاية القائد علي بن عبد الله على تطوان، وأرخوا ذلك بأواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر" [13].

ومهما يكن من أمر، فإن بناء الأسوار يرجع كما سبقت الإشارة إليه، إلى غايات تحصينية ودفاعية لحماية المدينة من أي تدخل خارجي محتمل، غير أنه في خضم الثورة التي أعقبت وفاة المولى إسماعيل واندلاع "حرب (عيسة السبت)" بين ساكنة تطوان (التي تزعمها محمد لوقش) والباشا أحمد الريفي، ستعرض أسوار المدينة إلى الهدم على يد هذا الأخير (الباشا أحمد الريفي). الشيء الذي جعل المدينة مكشوفة وغير مسورة إلى حين بنائه من جديد على يد القائد محمد تميم في مرحلة أولى، وإنهائها وإتمام بنائها على يد القائد محمد لوقش في فترة لاحقة.

عموما، تمثل الأسوار المحيطة بالمدينة أهم مكونات الهوية الحضارية والعمرانية وجزءا هاما من الذاكرة الجماعية ومن هوية المدينة وتاريخها وكيانيتها. وتشكل وجها من الأوجه المتعددة لتراثها وأصالتها.

ويلاحظ أن المدينة ستفقد منذ الاحتلال الإسباني الثاني (1912-1956) أجزاء هامة من أسوارها الخارجية، حيث ستقوم إدارة الحماية الإسبانية منذ سنة 1913 بهدم أجزاء مهمة من سور المدينة الممتد من باب العقلة إلى باب التوت لأجل تنفيذ مخططاتها العمرانية: كبناء مقر المفوضية العليا الإسبانية (القصر الملكي حاليا) وحي لونييتا بالمصلى. كما سيشرع ابتداء من سنة 1917 في بناء الحي الإسباني غرب المدينة العتيقة، وقد خططه الإسبان ليكون امتدادا لشارع الحاج أحمد الطريس المعروف بالطرفين، كما ستعرف هذه الفترة، اختفاء الجزء الأكبر من الأسوار التي كانت تحيط بالمدينة العتيقة من الجهة الغربية، انطلاقا من الشكنة المهجورة وحتى باب النواذر.

والحقيقة أن هدم الأسوار واختفاءها لم يقتصر فقط على فترة الحماية، وإنما تم حتى خلال الاستقلال وخاصة في ثمانينيات القرن الماضي (1986). حيث ستعرض أجزاء من السور الممتد من باب النواذر وباب التوت إلى الهدم لفتح مدخل لموقف للسيارات (الباركي دحمادي) منذ سنة 1986، علما أن هذا الموقف سيتحول منذ 2016 إلى ساحة للتنزه تحمل اسم "ساحة الفدان" ومرآب تحت أرضي للسيارات.

ومن الأجزاء المهمة التي ستعرض للهدم كذلك، ما تعرضت له الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية، الممتدة من باب النواذر إلى قصبة جبل درسة من الجهة الغربية، حيث إن تهدم هذا الجزء سمح، بالإضافة إلى بناء مجموعة إسبانيا السكنية (المعطوبين) خلال فترة الحماية، بظهور مجموعة من نوى أحياء التعمير غير القانوني ابتداء من شارع أبي هريرة (ديور الباليدوس أو المعطوبين) والأجزاء الجنوبية من حي جبل درسة المحاذية للمدينة العتيقة، وقد أدى هذا الوضع إلى صعوبة ضبط حدود سور المدينة العتيقة من جهة الغرب، نظرا لاختفاء المعالم الدالة على ذلك ولتداخل البناء من الجهتين (من جهة المدينة العتيقة ونوى التعمير غير القانوني المرتبطة بها).

والواقع أن الأسوار المتبقية تعرضت للعديد من التغييرات في مورفولوجيتها، حيث فتحت مجموعة من الفجوات والممرات و"الأبواب الصغيرة" بهدف تسهيل عملية الولوج إلى المدينة والخروج منها. كما هو الشأن بالنسبة للبوابة الصغيرة التي استحدثت بالسور الممتد من باب المقابر إلى قصبة جبل درسة، إذ أن خلق هذه البوابة كان له أثر إيجابي جدا على حركة الولوج والدخول إلى المدينة، وبالتالي تسهيل عملية الاتصال والتواصل لسكان حي الطالعة مع الأجزاء الشمالية للمدينة (حي درسة)، وما ساعد على ذلك، إحداث محور طرقي، على حساب المقابر، يربط حي الطالعة بأحد أهم المحاور الطرقية (شارع أحمد البقال) بالأجزاء الشمالية لمدينة تطوان، الشيء الذي سهل من عملية اندماج الأجزاء الشمالية الشرقية للنسيج العتيق مع باقي مكونات المدينة (الأجزاء الشمالية حيث حي درسة ونواة البربورين بالإضافة إلى المحور الطرقي "شارع محمد البقال" الذي يربط الأجزاء الشمالية للمدينة مع باقي مكونات المدينة، خاصة الجنوبية منها).

ومن الممرات أو الأبواب الصغيرة المستحدثة، نجد بوابتين صغيرتين بالسور الممتد من باب العقلة حتى باب الصعيدة: الأولى أحدثت منذ السبعينيات بمحاذاة باب العقلة لتخفيف الضغط على الباب الرئيسي (باب العقلة) وبالتالي تخفيف حركة الولوج والدخول من وإلى المدينة، خاصة إذا علمنا أن هذه الباب تعرف حركة تنقل قوية (لارتباطه بأحد أهم محاور النشاط بالمدينة: سيدي علي اليوسفي) التي كانت تزداد تعقداً مع انتشار الباعة بدون محل (عند مدخل الباب أو على طول المحور الطرقي سيدي علي اليوسفي).

وبالنسبة للباب الثاني: فهو عبارة عن مدخل ثانوي يوجد بين باب الصعيدة وباب الجياف، هذا المدخل يشكل (إلى جانب باب الجياف) أحد أهم مداخل السيارات بالأجزاء الجنوبية الشرقية للمدينة العتيقة لتطوان. وقد ساهمت مورفولوجية البناء السائد بهذه النواة (شوارع واسعة) في تسهيل عملية مرور وسائل النقل.

غير أن ما تجب الإشارة إليه، أن إحداث فجوات أو بوابات صغرى بأجزاء من سور المدينة، لا يكون دائماً لأهداف تخدم "الصالح العام" وإنما يحدث أحيانا أن تجد أجزاء من السور تعرضت للبتر لأهداف لا تجد لها أي مبرر، والحال هنا، بوابة صغيرة أحدثت بجزء من سور المدينة الممتدة من باب العقلة إلى باب الصعيدة، شكلت مدخلا لإحدى قاعات الأفراح "الخاصة". وهذا الإجراء بطبيعة الحال، يطرح جملة من الاستفسارات والتساؤلات حول تمثيلات الفاعلين المحليين -بتنوعهم- إلى مكونات الهوية التراثية للمدينة، وتعدد أشكال استباحته.

وفي هذا الصدد، وجب التأكيد على أن الأسوار التي يعود تاريخ بناؤها إلى منتصف القرن الثامن عشر ما تزال في وضعية جيدة، إلا أن بقايا الأسوار التي بناها القائد المنظري في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تعاني حالة تدهور كبيرة، من مظاهرها تهشم وتآكل وسقوط بعض أجزائها وهو ما يجعل التدخل لأجل صيانتها وترميمها دائم الحدوث والتكرار. وفي حالة كان هناك أي تأخر، يترتب عنه حدوث خسائر مهمة. والحال هنا، ما حدث بأجزاء السور الممتدة من باب المقابر إلى قصبة سيدي المنظري بدراسة، حيث تعرضت أجزاء منه إلى الانهيار (الصورتان رقم 2 و 3). وقد تطلب إعادته إلى "شكله الأصلي" تهديمه وبنائه من جديد!!! الشيء الذي أفقده أصالته من جهة، وكلف من جهة أخرى استثمارات مالية مهمة، كانت لن تكون لو تم التدخل في إبانه.

الصورتان رقم 02 و 03: انهيار أجزاء من سور المدينة الممتدة من باب المقابر إلى قصبة جبل درسة وإعادة بنائها من جديد



الصورتان ملتقطنان لأجزاء من سور المدينة الأول الذي بناه سيدي علي المنظري. ويلاحظ أن هذه الأجزاء تعرضت للاختيار بشكل كامل نتيجة لقدم بنائها من جهة، والإهمال غير المبرر الذي طالها. فالصورة الأولى ملتقطة لجزء من السور المتصل بنواة الطلعة، حيث تعرضت أجزاء كبيرة منه للاختيار. أما الصورة الثانية، فهي ملتقطة للسور المخاذي للمقبرة الإسلامية، وقد تعرض بدوره للاختيار. هاتان الصورتان وإن تعبران عن الحالة المساوية التي آلت إليه أجزاء من سور المدينة، وتجسدان بشكل واضح، أن المدينة العتيقة شكلت مجالا "غير نافع" ضمن المجال الحضري لتطوان، لما تنتجه من إكراهات مجالية من جهة، وللتكلفة الباهظة (ماديا) إن وجدت الرغبة في تجاوز هذه الإكراهات. إلا أن هذا الواقع (السيء)، تم تجاوز كثير من معالمه وإكراهاته، بعد "التغير" النسبي لمديري الشأن المحلي للمدينة وللتراث عموما، باعتباره أحد مداخل التنمية.

المصدر: أرشيف مصلحة المدينة العتيقة والانسانشي وتدير التراث.

وما دمنا نتحدث عن التدخلات التي استهدفت أسوار المدينة في إطار "ترميمها" وإصلاحها، فإنه يلاحظ أنها كانت جيدة في عمومها، إذ أنها حافظت على المظهر الخارجي للسور؛ وبالتالي على جماليته. لكن - في مقابل ذلك - نجد على المستوى الداخلي (البنوي) أن هذه الإصلاحات كانت تركز بالأساس على الترميم الخارجي، الشيء الذي جعل الهيكل الداخلي يعاني هشاشة في بنيته، لا سيما في ظل تفاعل عوامل الزمن والمناخ، وما تتركه من تأثيرات سلبية على البنية الداخلية السور. ومن جهة أخرى، فإنه يلاحظ أن المواد المستعملة في الترميم، لا تتناسب وتتلائم مع المواد المستعملة في بناء السور، الأمر الذي يؤدي إلى تفسخها وتشمعها، وهذا يؤدي بطبيعة الحال، إلى التدخل باستمرار لإصلاح ما تم إصلاحه من قبل.

وللإشارة، فإن عملية ترميم هذه الأسوار تطلبت في بادئ الأمر معاودة التدخل أكثر من مرة من أجل إيجاد "تركيبة" ملائمة تناسب بنية الأسوار (لا من حيث اللون ولا من حيث المواد المستعملة). الأمر الذي كان سببا في توتر العلاقة بين الشركة الموكول لها عملية الترميم وبين المصالح الإدارية المعنية (البلدية، وكالة تنمية الأقاليم الشمالية...)، أدت في كثير من الأحيان إلى فسخ عقد امتياز التدخل.

وعلى الرغم من الإكراهات التي ترتبط بالأسوار، فإنها تعتبر من المعالم العمرانية والتراثية التي حظيت بأكثر التدخلات وأجودها، ما جعلها تعتبر أكثر المعالم حظا، نظرا لأهمية التدخلات التي مستها والتي استطاعت أن تعيدها تقريبا إلى وضعيتها وشكلها، وبالتالي الحفاظ عليها، شأنها في ذلك، شأن أهم الأبراج والتحصينات الدفاعية المرتبطة بهذه الأسوار.

5- تحول وظيفة الأبراج والتجهيزات العسكرية

بعد إعادة تجديد مدينة تطوان، قام القائد علي المنظري بتحصينها بقصبتين، الأولى في الجهة الغربية في المكان المعروف حاليا بحومة جامع القصبة أمام سوق الحوت القديم والتي أنشأها السلطان أبو يعقوب يوسف المريني سنة 1286هـ (لذلك تعرف بقصبة المرينين وإليها -أي القصبة- ينسب الجامع الذي بناه المنظري حيث يعرف بجامع القصبة)، والثانية في الجهة الشمالية للمدينة على جبل درسة (يتعلق الأمر بالقصبة الواقعة بجبل درسة أنشأها المنظري الأول سنة 898 هجرية الموافق لسنة 1493م وقد استغرق بناؤها عشرين سنة وتعرف بقصبة الذيب) [14].

وبفعل التوسع العمراني الذي عرفته المدينة خلال القرنين السادس والسابع عشر، أصبحت معه القسبة الأولى واقعة بقلب النسيج العمراني للمدينة، الأمر الذي أفقدها دورها ووظيفتها الدفاعية والتحصينية. فيما ازدادت أهمية الثانية التي أصبحت تلعب أدوارا كبيرة و"صارت تحتل جانبا مهما من تاريخ المدينة السياسي والعسكري خصوصا في القرن الثامن عشر" [15]. ويزيد من أهمية هذه القسبة موضعها الاستراتيجي المشرف على كل أجزاء المدينة، والذي لم يكن اختياره بمحض الصدفة، بقدر ما كان عن وعي أكيد بالأهمية الجيوسراتيجية لهذا الموضع والدور الذي يمكن أن يقوم به في إطار الدفاع عن المدينة.

ومن المؤكد أن أهمية تحصين المدينة من الناحية العسكرية والإستراتيجية دفعت بحكام مدينة تطوان منذ إعادة تجديدها، إلى إحداث مجموعة من الأبراج، تعمل على مراقبة المدينة وحمايتها من التهديدات الخارجية. فدور هذه التجهيزات هو عسكري دفاعي محض. وهذه التحصينات تنوعت مواقعها وأهدافها، فكانت هناك أبراجا بحرية تقع خارج أسوار المدينة (برج رأس الطرف، و برج حلق الواد أو برج مرتيل، و برج أمسا)، وأبراجا للمدفعية تقع عادة بجوار البوابات الكبرى بالمدينة من أجل حمايتها (برج باب النواذر و برج طُبانة و برج باب المقابر) وأبراج ثلاثة صغيرة الحجم مخصصة فقط للحراسة وتكون عادة ملتصقة بأبواب المدينة.

والملاحظ أن جل الأبراج والتحصينات العسكرية باتت تستغل اليوم كمساكن أو كمحلات مهنية (الصورتان رقم 4 و 5)، وعلى سبيل المثال نذكر: البرج الواقع جنوب المدينة العتيقة بالقرب من برج السلوم وحديقة مولاي المهدي، هذا الأخير (برج السلوم) تحول من وظيفته الدفاعية إلى محل مهني عبارة عن مقهى. وكذلك الشأن بالنسبة لحصن أو برج اسقالة التاريخي الذي تحول منذ فترة الحماية الاسبانية إلى متحف (المتحف الاثنوغرافي)، كما أن العديد من الأبراج تحولت إلى مخازن للسلع والبضائع (يتعلق الأمر ببرج باب النواذر، أبراج المراقبة الممتدة على طول شارع الجزائر التي كانت تستغل كمخازن للسلع خاصة بالباعة بدون محل). هذا إلى جانب تحول مجموعة أخرى من الأبراج إلى محلات سكنية، ويتعلق الأمر بأبراج الحراسة التالية: برج المراقبة فوق باب المقابر و باب النواذر، برج الطلعة (قسبة جبل درسة)، برج قسبة سيدي المنظري، برج الحداد، برج سيدي مصباح وغيرها من الأبراج "السكنية" التي تكرر بأثمنة جد منخفضة، وغالبيتها عبارة عن أملاك وقفية.

الصورتان رقم 04 و 05: تحول وظيفة برج القسبة المرينية والسلوم.



تبين الصورتان أعلاه تحول وظيفة أبراج المراقبة بالمدينة العتيقة لتطوان، فالصورة الأولى على اليمين هي لبرج القسبة حيث سوق الحوت القديم. كان هذا

البرج عبارة عن مركز للحراسة إبان إنشائه، وتحول حاليا إلى محل سكني. وكما يتضح من الصورة، فإن قاطني هذا البرج، قاموا بإجراء مجموعة من التعديلات المعمارية (وضع سقيفة على سطح البرج وطمس العديد من المعالم المعمارية، إضافة طبقة جديدة وتكسيته بالإسمنت، وضع جهاز "البارابول") شوهت معالمه بشكل كبير. وتوضح الصورة الثانية، تحول برج السلوم (المجاور لحديقة مولاي رشيد) إلى محل مهني عبارة عن مقهى بسيطة.

المصدر: عدسة شخصية (بلال الزروالي): الصورة الأولى 24 نوفمبر 2017، الصورة الثانية: 2017/02/18

والواقع أن تحول وظيفة الأبراج ليس حديث الظهور وإنما برز منذ الاحتلال الإسباني الأول لمدينة تطوان (1860-1862)، حيث تحولت الأبراج إلى مساكن ومحلات مهنية: "وظل هذا النظام الدفاعي (أي الأبراج والحصون) يؤدي وظيفته إلى غاية الاحتلال الإسباني الأول للمدينة (1860-1862) حيث أثبتت حرب تطوان هشاشته وعجزه عن حمايتها في وجه الغزو الاستعماري، فتغيرت نظرة أهل المدينة تجاه الأبراج فصاروا يكترونها لتستعمل كمساكن ودكاكين ما دامت عاجزة عن القيام بالوظيفة التي أنشئت من أجلها في الأصل" [16].

ونشير -في نهاية هذا المحور- أنه على الرغم من الصعوبة التي تطرح على مستوى تحديد تاريخ بناء بعض الأبراج، إضافة إلى صعوبة تحديد مواضع الأبراج التي هدمت واختفت من الوجود (وهو جزء من الدينامية التراجعية التي يعرفها التراث العمراني بالمدينة، تبين لنا أن هذه المعالم التراثية عرفت وتعرف -كغيرها من المعالم الأخرى- جملة من التحولات والديناميات أثرت سلبا على واقعها العمراني لا من حيث وظائفها المتحولة، ولا من حيث بنيتها الفيزيائية المتدهورة، شأنها في ذلك، شأن الأقواس والسباطات.

6- الأقواس و"السباطات" عناصر عمرانية متنوعة وفريدة تعرف تدهورا كبيرا

تعتبر الأقواس والسباطات من العناصر المعمارية الأساسية، وجزء مهما من الهوية الحضارية والعمرانية للنسيج العتيق لمدينة تطوان. ويلاحظ على مستوى هذان المكونان العمرانيين، أنه عرفا ويعرفان جملة من التحولات مستهما بشكل مباشر، الشيء الذي أدى إلى اختفاء مجموعة من الأقواس، وتدهور ما تبقى من السباطات.

والسباطات هي عبارة عن ممر مسقوف بين مسكنين أو مبنيين، فهو بمثابة جسر معلق يعلو فراغ بناء أو الشارع بين مبنيين متقابلين. وتساعد السباطات في تظليل الأفنية وأجزاء من الشوارع، كما أنها تساعد على تحريك الرياح تحتها بفعل قوة ضغط الرياح الشمالية الشرقية خاصة إذا كان الممر أو الشارع يفضي إلى فناء واسع في الغرب. ويساعد تظليل أجزاء من الشوارع على خفض درجة الحرارة عندما تكون مرتفعة. وذلك بتوفير الظلال والحماية من أشعة الشمس مما يسمح بانتقال الهواء من الشوارع الضيقة إلى الأفنية الداخلية، خاصة أثناء النهار وتعرضها لأشعة الشمس.

وإلى جانب الوظيفة المناخية للسباط (حيث تساعد على تلطيف الجو بالأماكن والأزقة المغطاة بالسباطات) فإن لها أدوارا ووظائف اجتماعية ومعمارية. فهي أكثر الأماكن استخداما في المدينة لأنها مظلة؛ وبالتالي تعتبر أفضية توسعة للناس إذا ضاقت عليهم منازلهم (خاصة في فترات الصيف الحارة). كما أنها تعمل واقيا للمارة خلال تساقط الأمطار. ومن جهة أخرى تضفي -من الناحية المعمارية- جمالية ورونقا خاصة للمعمار

بالمدينة العتيقة. هذا دون أن ننسى لما لهذه الوحدات المعمارية من وظيفة بنائية فعالة، حيث تربط المباني ببعضها البعض لتكون كتلة واحدة فيسند كل مبنى الآخر. إنها بكل بساطة تجسيد عن إبداع الإعداد التقليدي للمدينة الإسلامية بتطوان وفعاليته واستدامته.

غير أن المتأمل في الوضع الذي تعرفه هذه السباطات، يرى أنها تعرف حالة تدهور خطيرة، حيث نجد العديد منها معرضة في أي لحظة للسقوط، خاصة وأن هياكلها الخشبية تأكلت بفعل عوامل الزمن والمناخ، الشيء الذي يسمح "بتسرب" وسقوط الأتربة من السقوف بشكل متواصل. وفي ظل التأخر المسجل على مستوى التدخل الرسمي في هذه المكونات المعمارية الأصيلة، يتم القيام ببعض الحلول الترقية من طرف الساكنة من خلال وضع بعض الحواجز على شكل أكياس بلاستيكية أو لوحات من الخشب أو الزنك، وفي أحيان أخرى يتم إزالة وتغيير الألواح الخشبية المدعمة لهذه المكونات ببناء سقيفة من الآجور والإسمنت المكتل، أو عن طريق استبدال الألواح الخشبية بأعمدة من الحديد الصلب، وهو بطبيعة الحال، يحدث نوعا من التشويه في عناصر المبنى ويخل من تناسقه.

وقد سبقت الإشارة إلى أن التدخلات التي قمم السباطات والأقواس من طرف المصالح المختصة (في عهدة المديرية الإقليمية لوزارة الثقافة بتطوان) تتميز بمحدوديتها وببطئها الشديد. وحتى وإن تم -هذا التدخل- فإنه يكون في أحسن الأحوال عبر إقامة أعمدة خشبية تعمل على الحيلولة دون سقوط السقف وانهاره!! وهذا التدخل بطبيعة الحال، لا يرقى إلى حجم الإشكالية المطروحة. الأمر الذي يجعل من هذه المكونات (السباطات) تشكل خطرا محدقا، خاصة إذا علمنا أنها تقع في محاور طرقية تعرف دينامية وحركية تنقل مهمة (للبضائع والأشخاص). والحال هنا، أن السباط الواقع بالقرب من مسجد العيون عرف انهيارا كاملا لسقفه، كاد أن يتسبب في حدوث أضرار وخسائر بشرية وخيمة، لو أن انهيار السقف كان في فترة الذروة المرورية. ونشير إلى أن إصلاح تلك السقيفة تطلب ثلاث سنوات!! (من يوليوز 2014 إلى أواخر 2017)، علما أن التدخل في هذه المكونات كان مقررا الانتهاء منه -بناء على اتفاقية مشروع إعادة الاعتبار للمدينة العتيقة 2011-2014- سنة 2014. وقد أوكلت مهمة ترميم وحماية هذه المكونات العمرانية الفريدة للمديرية الإقليمية لوزارة الثقافة بتطوان.

ومن جانب آخر، تعرف الأقواس المؤنثة للنسيج العتيق تدهورا في بنيتها وسوءا في استخدامها. إذ سبب تدهور المباني وميلانها نحو بعضها إلى إحداث ضغط كبير لا تستطيع الأقواس تحمله، الشيء الذي يحدث بها تصدعات خطيرة. وما يسرع من عملية التدهور هو قدم بنائها وهشاشتها، بالإضافة إلى أهمية العوامل المناخية (تسرب الماء، ارتفاع معدلات الرطوبة...)، زد على ذلك، محدودية (عدد محدود من التدخلات) وهشاشة التدخل (تدخلات ترقية تكتفي فقط بطمس التصدعات بالإسمنت). في هذه المكونات المعمارية، كل هذه المعطيات تعمل مجتمعة في التسريع من وتيرة تدهورها.

وفي ذات السياق، يلاحظ أن تدخلات السكان تساهم في إحداث خلخلة وتشويه في هذه المكونات المعمارية. فقد تبين لنا من خلال الزيارات المتعددة للميدان أن العديد من الأقواس بترت واقتلعت بشكل كامل!!، كما أن العديد منها يتعرض للتشويه و"للتعديل" حتى يتماشى مع الأغراض والأهداف الجديدة لمن يقومون بهذا التعديل. ومن أمثلة ذلك، ما حدث للقوس الواقع بتربية الكوزة بحي البلد عند نواة الخياطين، حيث قام صاحب محل مهني بتر جزء من القوس الملاصق له من أجل تسهيل عملية فتح وإغلاق محله (معاينة ميدانية شخصية). كما أن قوسا بالربض الأسفل بنواة الطنانة بتر بالكامل (الصورة رقم 6). والأمثلة تكثر عن مثل هذه التصرفات التي تخل وتضر كثيرا بمعالم المدينة وبأجزاء مهمة من هويتها، كما أنها تنم عن سوء فهم وتمثل غير واع بأهمية مثل هذه المكونات التراثية الأصيلة من قبل السكان ومختلف الفاعلين.

الصورة رقم 06: اختفاء جزء كبير من سور بزقة طنانة (الربض الأسفل) بالمدينة العتيقة لتطوان

تمثل الصورة الملتقطة من زقة الطنانة (الربض الأسفل)، أحد أهم مظاهر التحول العمراني والمعماري التي مس الأقواس المعلقة بالنسيج العتيق لتطوان، حيث يتم إزالتها قصد القيام بأعمال الصيانة والبناء من طرف أرباب المساكن الملاصقة لها. وهذا الإجراء يضر كثيرا بأحد أهم عناصر العمارة الأصيلة بالمدينة وأحد أهم مكوناتها الحضارية والتاريخية. وهذه العملية تعطينا فكرة واضحة وصرحة عن الكيفية التي يتعامل فيها سكان ومختلف الفاعلين بالمدينة مع تراثهم العمراني.

المصدر: عدسة شخصية (بلال الزروالي)، بتاريخ

2015/06/25



خاتمة:

على سبيل الختم، تبين لنا أن النسيج الحضري العتيق المدروس، يعتبر من أهم المدن العتيقة بالمغرب التي عرفت تحولات مجالية سريعة، أدت إلى تدهور إرثها التاريخي، ونسيجهما العمراني. وأصبحت تعيش وضعاً اجتماعياً هشاً يتمثل أساساً في ارتفاع الكثافة السكانية، وتدنيا للمستوى الاجتماعي والاقتصادي للسكان، وهو ما كان له انعكاساً سلبياً على الخصوصيات العمرانية والمعمارية بهذا المجال.

من هنا أصبح من الضرورة رد الاعتبار وإنقاذ التراث الثقافي والعمراني بالمدينة، والعمل على الحفاظ عليه واستثماره في التنمية في إطار مقارنة شمولية وتشاركية ومندمجة تحترم الخصوصيات العمرانية والمعمارية وتعمل على تجميعها وتسويقها، حتى يصبح قاعدة للتنمية السياحية.

الهوامش:

- [1] تعود النشأة الأولى لنظام الاسكوندو، إلى نهاية القرن التاسع الهجري، علي يد أبي الحسن علي المنظري، "بدليل أن المدينة ما تزال تحتفظ بأقدم هام بني بها، وكان من بناء هذا الأخير. ومن المعلوم أن مثل هذه المرافق لا تقوم ولا يمكن أن تؤدي وظيفتها إلا مع وفرة المياه". [...] واستمرت عملية مد قنوات الإيصال إلى داخل المدينة العتيقة، إلى النصف الأول من القرن الماضي، حسبما تشير إليه بعض الكتابات التاريخية والتصريحات الميدانية¹.
- [2] العبدلاوي (محمد)، 2004-2005، مرجع مذكور، ص. 408.
- [3] العبدلاوي (محمد)، 2004-2005، مرجع مذكور، ص 409.
- [4] مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد أوطاح، أحد قاطني درب الخطيب، والمتضررين من الإصلاحات التي شملت شبكة الاسكوندو.
- [5] الرامي (خالد)، 2008، مرجع مذكور، ص 242.
- [6] العبدلاوي (محمد)، 2004-2005، مرجع مذكور، ص 404.
- [7] في الحقيقة صدرت مجموعة من التقارير التي تؤكد أن مياه الشبكة ملوثة، وذلك منذ الثمانينيات، انظر:
- S.A.E.M.- Groupe huit -1980- «L'environnement en Médina de Tétouan», pp. 111-112.
 - Direction de l'Urbanisme et de l'Aménagement du Territoire, Direction de l'Urbanisme et de l'Architecture, Division de la Planification Urbaine, D.P.H.A.T. de Tétouan –juin 1984- «S.D.A.U.T. Rapport final, volume I: Synthèse des études générales et sectorielles», p. 108.
 - Agence Américaine pour le Développement International –mars 1992- «Impact de l'urbanisation sur les ressources naturelles, Tétouan, Maroc», pp 5-13.
 - SDAU de Tétouan, INYPSA, Rapport final, mars 1997, p. 18.
- [8] أُرْكَاغ (عبد اللطيف)، 2011، مرجع مذكور، ص 243.
- [9] داوود (محمد)، 2016، "التكملة"، تقديم وتحقيق وإضافات (حسنا محمد داوود) الطبعة الأولى، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ص 174.
- [10] الرهوني (أبو العباس أحمد)، 2012، الجزء الثاني، مرجع مذكور، ص 10.
- [11] داود، (محمد)، 1957، المجلد الأول، مرجع مذكور، ص 101.
- [12] داود، (محمد)، 1957، المجلد الأول، مرجع مذكور، ص 102.
- [13] الرامي (خالد)، 2005، مرجع مذكور، ص 158.
- [14] وردت تواريخ بناء القصبين عند: ابن عزوز حكيم (محمد)، 2001، مرجع مذكور، ص 125.
- [15] الرامي (خالد)، 2005، مرجع مذكور، الصفحتان: 149 و 150.
- [16] الرامي (خالد)، 2005، مرجع مذكور، ص 158.